المحاضرة الثانية: السلالات والشعوب الإفريقية:

تعيش في إفريقيا عدة سلالات بشرية متنوعة بتنوع أصولها ولغاتها، وبذلك تعرف قارة إفريقيا بقارة التنوع العرقي واللغوي والإثني، فنجد داخل البلاد الواحدة عدة أجناس وبلغات ولهجات مختلفة، اختلفت معها عاداتها وتقاليدها، ونمط عيشها.

1.- البشمن: لا يعتبر عددهم كبير اذ لا يزيد عن 50000 في كل بلد من بلدان جنوب القارة الإفريقية وهم موزعين بين صحراء كلاهاري في الجنوب الغربي من إفريقيا، وموقعهم الجغرافي هذا يعتبر من جهات الالتجاء التي تحتمي بها الجماعات اتعادا عن عدو يطاردهم أو يزحف من ورائهم.

والبقايا الأثرية تشير إلى أنهم جاؤوا من الشمال حيث كانوا منتشرين في مساحة كبيرة في الأقاليم المدارية شمال وجنوب خط الاستواء، ويؤيد هذا الرأي ما وجد من تصوير في الصخور في تنجانيقا بأسلوب يحاكي أسلوب البشمن في أوطانهم الحالية، وربما وجدت أمثلة من هذا التصوير في جنوب إثيوبيا.

وصفاتهم الطبيعية يمكن تمييزها بسهولة مقارنو مع باقي الإفريقيين ما عدا الهتنتوت، الشعر لولبي جدا تتجمع فيه الشعرات تاركة مسافات من جلدة الرأس، وهذا هو الطراز الذي يوصف بأنه مفلفل، والقامة أقرب إلى القصر؛ أي نحو 158 سم، وهذا الطول يبعدهم عن الأقزام، والأطراف نحيلة والأيدي والأرجل صغيرة والنسبة الرأسية تقترب من 75، والرأس قليل الارتفاع، ولون البشرة يميل إلى الاصفرار، والجلد يتجعد بسهولة، والوجه قليل البروز مستعرض صغير، بارز عظام الخدين والجبهة منتفخة نوعا، والعيون ضيقة، والجفون يعتريها التجعد، والأذن شكلها مربع وتكاد تخلوا من الشحمة.

ومن الصفات التي اشتهر بها البشمن ما يعتري الجزء الأسفل من العمود الفقري من التقوس للأمام، وذلك بسبب بروز العجيزة بشكل واضح، وفي النساء يتراكم الشحم بكثرة في هذه المنطقة، ويتكلم البشمن لغة خاصة، وهي مجموعة منفصلة أو أسرة لغوية منفردة، وسماها جرينبرج بأسرة الطقات The Click Family ، أي الأصوات التي تختلف عن جميع أصوات الحروف الابجدية في جميع اللغات.

وتنقسم القبيلة عندهم إلى عشائر وكل عشيرة تتألف من بضع عشرة أسرة ويسميها أكثر الكتاب "عصابات" bands تزعم أنها ترجع إلى جد واحد وتمتلك مساحة من الأرض تلتزمها ولا تكاد تخرج عنها، ولها في حدود أرضها نوع من الاستقلال، ولكل عشيرة رئيس

ليس له صفة الزعامة الدائمة، ولا تجب له الطاعة في الأمور العادية، ولكن له بعض النفوذ التقليدي.

الهتنتوت:

على الرغم من أن الهتنتوت اسمهم دائما مرتبط بالبشمن ويتشابهون شكلا وثقافة، فقد تأثروا بعناصر ودماء غريبة، إن حياة الصيد التي يحياها الهتنتوت والتقاليد التي يلتزمونها والعزلة التي فصلتهم عن غيرهم، وحالت دون اختلاطهم قد ساعدت على بقاء السلالة دون أن تتسرب إليها دماء أجنبية.

والهتنتوت قامتهم أطول نوعا ما والصفات الزنجية أكثر ظهورا مما هي عند البوشمن، والرأس أكثر استطالة، ولا شك أنه قد حدث بعض الاختلاط بالبانتو الذين جاوروهم زمنا طويلا، ولا يزالون يجاورونهم اليوم، ويرى سليجمان أن الهتنتوت قد اختلطوا في الوطن الأصلي بعناصر حامية، وكان لهذا الاختلاط أثره الثقافي أيضا في اكتساب لغة الهتنتوت خصائص مشتقة من لغات الحاميين، وإن بقيت اللغة من أسرة لغات البشمن ذات الطقات، وعند سلجمان أن ذلك الوطن الأصلي واقع في منطقة البحيرات.

ويبدوا أن هجرة الهتنتوت نحو الجنوب جاءت متأخرة عن هجرة البشمن، وقد التزموا طريقا أبعد إلى الغرب فاخترقوا أعالي نهر الزمبيزي حتى وصلوا إلى الساحل الغربي ثم انحدروا جنوبا إلى منطقة الرأس، وكانوا أول الوطنيين الذين صادفهم المستعمرون الاوربيون عندما نزلوا بتلك المنطقة.

إن التوزيع القديم للهتنتوت كان يشمل الاطراف الجنوبية الغربية من مصب نهر كونيني شمالا إلى شبه جزيرة الكاب جنوبا، ويمتد شرقا إلى نهر كي، أما في الوقت الحاضر فإنه قد يكون هناك بقايا موزعة في جنوب هذا الوطن الكبير، أما الجماعات المنظمة نوعا ولها نوع من الحياة المشتركة، فإنها منحصرة في إقليم محدود من إفريقيا الجنوبية الغربية، إلى الشمال من نهر أورنج، وهذا يدل على ما كان للهجرة الاوربية من أثر في التضييق عليهم وزحزحتهم عن أوطانهم.

وكان للهتنتوت قبائل عديدة منظمة، وكل قبيلة تتكلم واحدة من اللهجات الاربع التي كانت سائدة، وترتب على هذه اللهجات تقسيم الهتنتوت إلى أربع مجموعات: النامان، الكورانا، الجوناكوا، سكان منطقة الرأس الذين يعيشون اليوم في الجنوب الغربي من إفريقيا كلهم من مجموعة نامان، واكبر ما يختلف فيه الهتنتوت عن البشمن أنهم رعاة يربون البقر ذات القرون الطويلة، والأغنام ذات الاذناب السمينة، ويمارسون صنع الحديد، ويتخذون منه أدوات ورماحا وسهاما، ويصنعون من الخشب مواعين وصحونا، ومن البوص والحطب

يصنعون الأسفاط وينسجون الحصير، ومن الجلود يتخذون قربا للماء، وأوعية لحفظ اللبن، وفي هذا كله ما يميزهم عن البشمن.

الأقزام:

هذه السلالة عددها قليل مقارنة بباقي السلالات الاخرى، ولكن لها صفات وخصال تلفت النظر وتسترعي الاهتمام، وإن الصفة التي أعطت للأقزام اسمهم المميز هي قزمية القامة التي تبلغ في المتوسط 140سم للرجال و130 سم للنساء، والقزمي الأصيل يبلغ طوله حوالي 130سم، أما الذي اختلط بالزنوج فيبلغ عادة أقل من 152سم، وطول الذراعين كبير مما لا يتناسب مع القامة القزمية. والبشرة صفراء داكنة إلى بنية، والجسم مغطى بشعر خفيف، والعيون كبيرة بارزة، والأنوف مفلطحة، والفك الأعلى بارز عادةً، ومن صفاتهم السلالية المميزة أن شعر الرأس مفلفل على عكس الشعر الصوفي عند الزنوج، وهم يعيشون في جماعات صغيرة العدد لا تزيد عن خمسين إلى مائة شخص، ويصطادون بالقسي والسهام المسمَّمة، ويجمعون الجذور والثمار،

وأصبح الأقزام يعتمدون تمامًا على جيرانهم من الزنوج المزارعين، ويتبادلون معهم الصيد بالمحصول الزراعي فيما يُعرَف أحيانًا باسم التجارة الصامتة. والحقيقة أنه ليس في استطاعتنا أن نقول إن هناك وطنًّا أو أوطانًا للأقزام خالصة لهم، بل يشتركون دائمًا في أرضِ زعيمٍ زنجيٍّ، وغالبًا ما يكون هناك خضوع سياسي للزنوج، وقد أدى هذا إلى امتصاص عدد من الأقزام داخل الزنوج نتيجة التزاوج .

ويتكون الأقزام من اثنتي عشرة قبيلة رئيسية، تعيش كلها داخل النطاق الغابي الاستوائي في أفريقيا الوسطى، وتؤلِّف هذه القبائل ثلاث مجموعات متميزة هي: المجموعة الشرقية التي تعيش في شمال شرق الكنغو وحوض السمليكي وجنوب غرب أوغندا، وتُسمَّى مجموعة البامبوتي، ثم المجموعة الوسطى التي تعيش فيما بين نهر كساي ونهر الكنغو وتُسمَّى الباتوا، وأخيرًا المجموعة الغربية بين جنوب الكمرون وجابون، وتُسمَّى مجموعة البابنجا. وإلى الآن لا يتفق المتخصصون في شئون الأقزام عما إذا كان للأقزام لغة أو لغات خاصة أم لا؛ فهم يتكلمون لغة الزنوج المجاورين .

السلالات الزنجية

يكوِّن الزنوج أكبر مجموعة سلالية أفريقية، ولكنهم نظرًا لامتدادهم الشاسع جنوب الصحراء الكبرى حتى شرق أفريقيا وجنوبها الشرقي، فقد انقسموا إلى عدة أقسام سلالية ولغوية، وأكثر التقسيمات شيوعًا هي تلك التي ذكرها الأستاذ سليجمان، وتقسم إلى قسمين رئيسيين هما: الزنوج الحقيقيون True Negro في غرب أفريقيا وإقليم السودان الطبيعي، والبانتو الذين يعيشون جنوب خط يمتد من خليج بيافرا إلى شرق أفريقيا، ولكن الملاحظ أن

سليجمان يستخدم في تصنيفه للسلالات الأفريقية مصطلحات ومقاييس لغوية في أغلب الأحيان، فاصطلاح «بانتو» أو «حامي» ليس إلا اصطلاحًا لغويًّا، ورغم ذلك فلا شك أن لسليجمان فضلًا كبيرًا على المتخصصين في الدراسات الأفريقية، وما زال الكثيرون يأخذون بتقسيماته .

ولكن تجمع الكثير من الدراسات الأنثروبولوجية — رغم قصورها حتى الآن — قد مكن عددًا من الباحثين من تقسيم سلالات أفريقيا إلى مجموعات سلالية عامة، متجنبين قدر الإمكان الزج باللغة وأقسامها في هذه التصنيفات، ومن الدراسات المجتهدة في هذا المجال دراسة العالم الألماني فون إيكشتد Von Eiekstedt ، والعالم البولندي كليمك Klimik ، بالإضافة إلى أبحاث العلماء أوتو ريخي O. Reche عن منشأ الزنوج، ومارجريتا فيننجر M. Wininger عن الأقزام، وشابيرا I. Schapera عن الخويزان .

وقد التزمنا في تقسيماتنا الحالية بمنهج فون إيكشتد، رغم ما يعتريه من بعض أوجه النقص واستخدام اللغة أو المضمون الحضاري في تقسيماته.

وتنقسم السلالة الزنجية في أفريقيا إلى الأقسام التالية :

1.- **زنوج الغابة أو الزنوج القدماء** Palaéonegride: ويعيشون في نطاق واسع يمتد في وسط أفريقيا (حوض الكنغو) وشمال ووسط أنجولا، غانا السفلى (جابون وجنوب الكمرون) وكل الإقليم الساحلي لغرب أفريقيا حتى دكار، ولهم امتداد عبر النيجر الأدنى إلى هضبة جوس، كما أن لهم امتدادًا آخَر في جنوب ووسط بحر الغزال، وحدودهم الشرقية الحافة الغربية للأخدود الغربي.

2.- **زنوج الجنوب أو الكافير Kafride**: وهؤلاء يعيشون في معظم أفريقيا الجنوبية والشرقية، ابتداء من جنوب بحيرة فكتوريا وساحل كينيا والصومال الكيني حتى ساحل ناتال، ومن جنوب الكنغو ووسط أنجولا حتى حدود صحراء كلهاري، كما أن القاعدة الأساسية لسكان مدغشقر تنتمي إلى هؤلاء الزنوج، ويكاد ينطبق اسم البانتو الشرقيين والجنوبيين — حسب تصنيف سليجمان — على هؤلاء الزنوج.

3. **زنوج السودان Sudanide**: وهؤلاء يمتدون في إقليم السودان الطبيعي من السنغال حتى الجزيرة في جمهورية السودان، كما يتوغلون جنوبًا في الكمرون وجمهورية أفريقيا الوسطى وشمال غرب الكنغو عند نهر الأوبنجي، وتتسع أوطان زنوج السودان في غرب أفريقيا، بحيث تكاد تشملها جميعًا ما عدا الساحل وهضبة جوس وثنية النيجر، أما في السودان الأوسط والشرقي، فإن أوطانهم تضيق نتيجة ظهور أوطان مجموعة النيليين، وبهذا يكاد ينطبق تصنيف سليجمان للزنوج الحقيقيين على زنوج السودان، إذا أضفنا إليهم الزنوج القدماء على ساحل غرب أفريقيا.

4.- **زنوج النيل Nilotide**: ويحتلون معظم السودان الجنوبي ويمتدون غربًا إلى السودان الأوسط، فيشملون سكان جمهورية تشاد في قسمها الجنوبي، كما يمتدون شرقًا إلى أقدام الهضبة الحبشية، وجنوبًا إلى شمال أوغندا وشرقها، وكل الساحل الشرقي لبحيرة فكتوريا.

هذه الأقسام الرئيسية للسلالة الزنجية الأفريقية تحتل قلب وغرب وجنوب القارة، ولا تترك سوى الركن الجنوبي الغربي للخويزان، بينما تنحسر تمامًا عن الشمال والشمال الشرقي الذي تحتله المجموعات السلالية القوقازية .

ونظرًا لهذا الموقع فإن الزنوج القدماء هم أنقى الزنوج نسبيًّا، بينما تعرَّضَ زنوج السودان والنيل للاختلاط بالقوقازيين بدرجة كبيرة، وزنوج الجنوب «الكافير» لبعض الاختلاط بالقوقازيين في الشمال الشرقي لأوطانهم، وبالخواسان (الخوي خوي) في شرق أفريقيا وجنوبها الغربي، ويتميز الزنوج القدماء بأنهم يسكنون فعلًا في نطاق الغابات الاستوائية؛ مما قد يدعونا إلى تسميتهم زنوج الغابات تمييزًا لهم عن زنوج السودان الذين يمكن تسميتهم زنوج السفانا. ويتميز «الزنوج القدماء» بأن الرأس قصير والجسد كبير بالنسبة لطول الأرجل، الأنف مفلطح بشدة، والشفاه غليظة نسبيًّا، والحقيقة أن تسميتهم بالزنوج القدماء يثير مشكلة قِدَمهم على غيرهم من الزنوج، بينما بعضهم — فيما يبدو من دراسات حتى الآن — كان نتيجة اختلاط زنوج السودان وأقزام الغابات. وتدل الدراسات الاتنولوجية على أن هؤلاء الزنوج أنفسهم يؤكدون أنهم حديثو العهد بسكن الغابة، وإنهم أحدث من الأقزام بكثير في هذه المواطن، وعلى هذا فالأوفق استخدام مصطلح زنوج الغابات؛ لأنه لا يعطي دلالة زمنية لقِدَم أو حداثة هؤلاء الزنوج .